كتاب مستقبل الثقافة في مصر

الثقـــافة العامة

وتعليم اللاتينية واليونانية

للأستاذ أبي خلدون ساطع الحصري بك

يثير الدكتور طه حسين (في كتابه مستقبل الثقافة في مصر) مسألة « اللاتينية واليونانية » بشكل يستلفت الأنظار ويستدعي الاهتمام :

يستهل كلامه الطويل عن هذه المسألة (ص ٢٨٥ — ٣٠٢) بقوله : « إن وزارة المعارف لا تريد أن تقف عندها ولا أن تفكر فيها ، لأنها غريبة بالقياس إليها ، بل هي غريبة شاذة بالقياس إلى الكثرة العظمى من المثقفين المصريين ، مع أنها في نفسها ، من أوضح المسائل وأجلاها . . . »

ثم يستعرض الأدوار التي مرت على هذه المسألة في مصر ، ويشرح بإيجاز كيف « أن صاحب المقام الرفيع علي ماهر باشا كان قد شعر بخطر هذه المسألة وهمّ بحلّها » عند ما كان وزيراً للمعارف . فقد بدأ بإدخال اللاتينية واليونانية في بعض المدارس الثانوية ، وأقرّ تعليم هاتين اللغتين في الجامعة — بالقياس إلى كليتي الآداب والحقوق — غير أنه لم يمض زمن طويل على ذلك ، حتى ألغيت اللاتينية واليونانية من المدارس الثانوية ، وقام « صراع عنيف حول إقرار اللاتينية بالقياس إلى كلية الحقوق، وانتهى هذا الصراع بانتصار خصوم اللاتينية . . . »

يصف الدكتور طه حسين « الحالة الحاضرة » التي نجمت عن ذلك بأشد أوصاف اللوم وأعنفها ؛ فيبذل في حديثه كلمات « المضحك ، المخجل ، المخزي . . . » ويوصل الأمر إلى درجة استعمال ألذع التعبيرات وأقرصها ، من « الرضاء بالهوان » إلى « الاستخذاء أمام الأوربيين » و « الاطمئنان إلى الخزي المبين » . . .

وذلك لأنه يعتقد بضرورة اللاتينية واليونانية للثقافة العالية، ويعبّر عن اعتقاده هذا بكلمات بائنة :

« أنا مؤمن أشد الإيمان وأعمقه وأقواه ، بأن مصر لن تظفر بالتعليم الجامعي الصحيح ، ولن تفلح في تدبير مرافقها الثقافية الهامة ، إلا إذا عنيت بهاتين اللغتين ، لا في الجامعة وحدها ، بل في التعليم العام قبل كل شيء (ص ٢٨١)

لأن «اللاتينية واليونانية أساس من أسس العلم والتخصص» (ص ٢٨٥) فيجب أن تفرضا على « كل من يريد العلم الخالص والتخصص فيه » (ص ٢٧٦) و « لأن التعليم العالي الصحيح لا يستقيم في بلد من البلاد الراقية إلا إذا اعتمد على اللاتينية واليونانية على أنهما من الوسائل التي لا يمكن إهمالها والاستغناء عنها . . . » (ص ٢٩٢)

ولهذا السبب ، يوجه الدكتور إلى معارضيه السؤال التالي ، ويجيب عليه بالملاحظات التي تليه :

« والسؤال الذي يجب أن نلقيه وأن نجيب عنه في صراحة وإخلاص وفي وضوح وجلاء هو هذا السؤال : أنريد أن ننشئ في مصر بيئة للعلم الخالص تشبه أمثالها في البيئات العلمية في أي بلد من البلاد الأوربية الراقية أو المتوسطة أم لا نريد ؟ فإن كانت الثانية فقد خسرت القضية ، وليست مصر في حاجة إلى يونانية

ولكنه تسرّع ... على كل حال أحمد الله ... لقد كنت أخاف ... كيف أقول ؟ أخاف أن أظل أرتد وأرتد ، حتى أصير مثله تماماً بلا فرق » فسألتني : « ولماذا تخاف هذا ؟ » قلت : « لو حدث هذا لأصبحت صورة مكررة ... نسخة معادة ... طبعة ثانية لا تختلف عن الأولى إلا في زمن الصدور ... أي زيادة لا داعي لها ولا مزية ... ولكان وجودي تكلفاً لا مسوغ له ، وإسرافاً غير جائز ، وعناء باطلاً لا جدوى منه ... وسبحان ربي عن ذلك ... وكنت أخاف شيئاً آخر ... أن يضطرني ما يحوجني إلى العجلة إلى ترك أسلوبي الكتابي يفسد وينحط بأن يفقد صلته بالحياة ، وبأن يصبح عبارة عن قوالب قديمة مرصوصة فأكون كالمقاول الجاهل الذي لا يعرف غير طراز واحد من هندسة البناء ... أتعرفين أن عندنا في مصر « مقاولين » إخصائيين في بناء المقابر ؟ لو تركت أسلوبي يفسد بالإهمال والكسل لأصبحت كهذا الذي لا يبني إلا القبور وما إليها ... ولكني تنبهت والحمد لله فسأكون من هذا بعد اليوم على حذر ... ولو اتسع وقتي لراجعت ما كتبت أو كتبته من جديد ، ولكن ما فات مات ، والعبرة بما هو آت ، وعليك يا امرأة أن تجددي ، أو على الأقل أن تحثي على التجدد ، كلما رأيتني أهم بأن أجمد وأركد ، وهذا خير ما تستطيعين أن تفعلي، إذا كنت تستطيعين شيئاً »

ابراهيم عبد القادر المازني

ولا إلى لاتينية ، وليست مصر فى حاجة إلى الجامعة وإلى كلياتها بل حسبها أن تعود إلى عهدها أيام الاحتلال ، وأن تسير سيرة المستعمرات وتكتفى ببعض المدارس العالية لتخريج من تحتاج إليهم من الموظفين . وإن كانت الأولى فقد ربحت القضية ، ولا بد من العناية بهاتين اللغتين لا فى الجامعة وحدها ، بل فى المدارس العامة أيضاً[1] (٢٨٨)

يظهر من هذه العبارات أن الدكتور يعتبر هاتين اللغتين من لوازم الجامعة الأساسية ، ويدعى أن عدم العناية بهما لا يختلف كثيراً عن طلب إلغاء الجامعة نفسها ، ويرى بأن ذلك لا يجوز إلا إذا طُلب من مصر أن تعود إلى عهدها أيام الاحتلال وأن تسير سيرة المستعمرات ...

وقد يخطر على بال القارئ أن يسأل مستغرباً : إذا كانت المسألة بهذه الدرجة من الوضوح والجلاء فكيف وجدت هذه المقاومة وهذا الازورار فى دوائر المعارف ومحافل المثقفين ؟ إن الدكتور يبدى هذا الاستغراب فيقول : « ومن أغرب الأشياء فى نفسى وأبعدها عن فهمى ألا يفطن لها ولا يهتدى إليها الذين ينهضون بشئون مصر ويقومون على تدبير الأمور فيها ، والذين يشرفون على التعليم فيها بنوع خاص ... » (ص ٢٨١)

يبحث الدكتور — مع هذا — عن أسباب هذه المقاومة عدة مرات، فيعزوها مرة إلى عوامل عرضية مثل استياء الإنكليز من انتخاب معلمى هاتين اللغتين من الفرنسيين والبلجيكيين (ص ٢٧٥) ، أو كيد أستاذ من أساتذة كلية الحقوق للعميد الأول لكلية الآداب الحكومية (ص ٢٧٩) ، غير أنه يعزوها فى المرة الثانية إلى عوامل أساسية تتلخص — من حيث الأساس — فى نقص « ثقافة القائمين بشئون التعليم فى مصر » (ص ٢٨١)

يقول المؤلف فى هذا الصدد : « وأكبر الظن أن مصدر هذا إنما هو أن الجيل الحاكم والمترقى إلى الحكم لا يتقن العلم بالشئون الثقافية فى أوربا ولا يكاد يعرف منها إلا ظواهرها ، وظواهرها الغريبة اليسيرة التى لا يحتاج فهمها ولا العلم بها إلى جهد ولا عناء » (ص ٢٨١)

إذ أن « منهم من تعلم فى المدارس المصرية وانتهى إلى غاية التعليم العالى المصرى أيام الاحتلال ، ثم وقف عند ذلك ولم يتجاوزه فلم يعرف من حقيقة التعليم شيئاً أو لم يكد يعرف منه شيئاً .. » (ص ٢٨١) ومنهم « من اتصل بالجامعات الأوربية قبل أن يتم التعليم العالى فى مصر أو بعد أن أتمه فدرس فيها وظفر ببعض إجازاتها ، ولكنه درس فيها عجلاً وظفر بأيسر إجازاتها وأهونها وانتفع فى هذا كله بنظام المبادلات التى تقره الجامعات الأوربية لتيسر على الأجانب الاختلاف إليها وترغبهم فى الاتصال بها ... » (ص ٢٨٢) ، ولذلك عاد من أوربا دون أن يعرف « من الحياة العقلية الأوربية إلا ظواهرها وأشكالها ... » (ص ٢٨٣)

وإن « بين الذين ذهبوا إلى أوربا وعادوا منها وبين الذين أقاموا فى مصر واتصلوا بأوربا بعض الاتصال، من ألم إلماماً يسيراً بل إلماماً ناقصاً مشوهاً بهذه الخصومة التى قامت فى أوربا منذ أواخر القرن الماضى بين الديمقراطيين والمتطرفين من جهة ، وبين المعتدلين والمحافظين من جهة أخرى حول تعليم اللاتينية واليونانية ... » (٢٨٤) « إنهم فهموا هذه الخصومة على غير وجهها الصحيح ، وظنوا أن التجديد يقتضى بغض هذه الأشياء القديمة » ... « ولم يخطر لهم أن يتعمقوا هذه الخصومة ولا أن يتبينوا موضوعها وغايتها ... » (ص ٢٨٥)

إن المقاومة التى تلقاها اللاتينية واليونانية فى مصر نشأت من هذا النقص الأساسى . فلو خطر لهؤلاء أن يتعمقوا هذه الخصومة لعرفوا أن موضوعها « لم يكن ضرورة هاتين اللغتين للثقافة والحضارة ، وإنما كان ضرورة فرضهما على جميع التلاميذ الذين يختلفون إلى المدارس الثانوية ويتصلون بالتعليم العالى على اختلاف فروعه وألوانه لا سيما بعد أن انتشر التعليم وطمعت فيه

---

(١) يستعمل الدكتور طه حسين فى الفقرات التى تلقاها آنفا — وفى سائر الأقسام فى كتابه - تعبيرات « التعليم العام والمدرسة العامة » بمعنى « التعليم الثانوى والمدرسة الثانوية » فيخرج « على المعقول والمألوف » فى وقت واحد ، باستعمال هذه التعبيرات — على هذا المنوال — استعمالا مخالفا لمعانيها اللغوية من جهة ولمعانيها الاصطلاحية من جهة أخرى . نظن أن الدكتور — أراد أن يقتدى بالانكليز الذين يسمون نوعا من مدارسهم الثانوية بمثل هذا الاسم Public school غير أننا نود أن نلفت الأنظار إلى أن هذا الاسم عندهم فى المواريث التاريخية التى لم تعد تنطبق على مسمياتها بوجه من الوجوه . لأنهم كانوا سموا التعليم فى تلك المدارس باسم « التعليم العام » تمييزاً له من « التعليم الخاص » الذى كان يجرى فى بيوت الحواص على أيدى معلمين خاصين ، وذلك قبل أن تتولد فكرة التعليم العام بالمعنى الذى نفهمه الآن

فاذا كانت التقاليد الانكليزية المؤسسة فى هذا الباب ، تحمل القوم على الاستمرار فى استعمال هذا الاسم الموروث من سالف القرون — بالرغم من عدم مطابقته لمسماه الحاضر ، فهل يجوز لنا نحن أن نقتدي بهم فى مثل هذه التسميات الشاذة ؟

الطبقات كلها طبقات الأغنياء والفقراء وأوساط الناس .. » (ص ٢٨٥)

يحاول الدكتور أن يصحح مزاعم هؤلاء فيؤكد أن «موضوع الخصومة كان فى حقيقة الأمر هذه المسألة : أيجب أن يتهيأ الناس جميعاً للعلم والتخصص ليصبحوا جميعاً قادة للرأى ومديرين للأمور العامة ، أم يجب أن يتهيأ بعضهم لحياة العلم والتخصص ، وأن يتهيأ أكثرهم للحياة العاملة التى تيسر لهم الاضطراب فى طلب الرزق وكسب القوت ؟ فإن تكن الأولى فلا بد من اللاتينيّة واليونانية لأنهما أساس من أسس العلم والتخصص ؛ وإن تكن الثانية فكثرة الناس محتاجة إلى التعليم الفنى من جهة ، وإلى التعليم العام الحديث الذى يعرض عن اللاتينية واليونانية إلى اللغات الحية والعلوم التجريبية ، بشرط أن تظل اللاتينية واليونانية مفروضتين على كل من يريد العلم الخالص والتخصص فيه . . . » (ص ٢٨٥ — ٢٨٦)

مع هذا ، يلاحظ الدكتور طه حسين — فى محل آخر من كلامه — أن المقاومة التى تلقاها اللاتينية واليونانية فى مصر ، لا تنحصر فى دوائر المعارف، بل تشمل معاشر المثقفين بأجمعها .. إنه يلاحظ ذلك أيضاً ، ويعلله « بالعادة لا أكثر ولا أقل » إذ يقول : « إنهم لم يتعلموا اللاتينية ولا اليونانية ، ولم يسمعوا بهما أثناء اختلافهم إلى المدارس العامة ؛ وقد رأوا مصر تعيش عيشتها الحديثة من غير هاتين اللغتين ، فلم يترددوا فيما انتهوا إليه من الاقتناع بأن تعليم هاتين اللغتين تزيُّد لا حاجة إليه ولغو لا خير فيه . . . » (ص ٢٩١)

وبعد ذلك ، يكرر المؤلف دعوته إلى العناية بهاتين اللغتين اعتباراً من الدراسة الثانوية ؛ فيقترح تنويع التعليم الثانوى إلى ثلاثة أنواع ، على أن يستند النوع الواحد منها إلى تعليم اللغات القديمة . يفرض فيه « على الطالب درس اللاتينية ولغة أجنبية حية ، ويترك له الخيار بين اللغة اليونانية ولغة أوربية أخرى » ويحتم الانتساب إلى هذا الفرع على « كل من أراد أن يهيئ نفسه بعد الثقافة العامة للدراسات الأدبية المختلفة » بما فيها الفلسفة والتاريخ والجغرافيا . . . (ص ٣٠١)

لا يجهل المؤلف المقاومة التى ستلقاها فكرته هذه من مختلف المحافل والبيئات فيقول : « أنا أعلم فى أثناء إملائى هذه الكلمات صياح الصائحين وأحس هياج الهائجين ، وأشعر بما سيثور من سخط ، ولكنى مع ذلك مقتنع بما أقول ، مذعن بصواب ما أدعو إليه ، ملح فى هذه الدعوة ، غير حافل بالرضا ولا بالسخط ، ولا معنى إلا بما أعتقد أنه يحقق المنفعة الثقافية للمصريين . . . » (ص ٣٠٠)

* * *

إن هذه الاقتباسات التفصيلية، التى لخصت فيها آراء الدكتور طه حسين — دون أن أبدى شيئاً من موافقتى لها أو اعتراضى عليها — تبين بكل وضوح وجلاء أن مسألة « اللاتينية واليونانية فى مصر » تطورت تطوراً غريباً ووصلت إلى طور حادّ يحتاج إلى قرار حاسم

هذه المسألة لم توضع على بساط البحث فى محافل المعارف والتربية فى سائر الأقطار العربية ؛ غير أن إثارتها ومناقشتها فى مصر بهذه الصورة مما يجب أن يحمل المحافل المذكورة أيضاً على التفكير فى أمرها ، لتكوين رأى صريح فيها ، واتخاذ قرار معقول فى شأنها . . .

ولهذا السبب ، رأيت من واجبى أن أتدخل فى هذا البحث الذى يثيره الدكتور فى كتابه ، وأبدى ما لدىّ من الملاحظات حول هذه المسألة . . .

إننى أعتقد أن الطريقة المثلى لحل أمثال هذه المسائل هى :

أولاً : درسها من وجوهها الأوربية البحتة درساً صحيحاً مجرداً عن كل فكرة قبلية مع ملاحظة العوامل التاريخية التى أثرت عليها فى الماضى والمذاهب الفكرية التى تحوم حولها فى الحاضر .. وبعد ذلك الإقدام على التفكير فى المسألة من وجهة أحوال بلادنا وحاجات أمتنا ، مع الاستعانة بالاختبارات التى تكوّنت والآراء التى تبلورت حولها فى أوربا

وإنى عملاً بما تقتضيه هذه الطريقة أبدأ بحثى بإلقاء نظرة إجمالية على تاريخ مسألة تعليم اللاتينية واليونانية فى البلاد الغربية فأقول:

من المعلوم أن اللغة اللاتينية كانت لغة روما فى القرون الأولى غير أنها صارت بعد ذلك لغة الطبقة المديرة والمستنيرة فى جميع أنحاء أوربا الغربية عند ما دخلت تحت حكم روما ، كما أصبحت لغة الدين والصلاة فى تلك البلاد عند ما اعتنقت الديانة المسيحية ؛ وأخيراً صارت من دعائم الكنيسة الكاثوليكية عند ما تكونت

الكنيسة المذكورة وأخذت تبسط سلطتها على جميع الدول والدويلات التي تدين بها . فقد تبنّت الكنيسة اللغة اللاتينية واتخذتها واسطة لضمان وحدتها ، ولذلك عملت على نشرها في جميع البلاد التي دخلت تحت حوزتها ، حتى بعد تضاؤل سلطة الامبراطورية الرومانية وزوالها بصورة نهائية ...

وأما اليونانية فقد حافظت على كيانها في معظم البلاد التي انتشرت بها بالرغم من استيلاء الرومان عليها ، كما أنها أصبحت لغة الدولة بعد انفصال الشرق عن الغرب، وتكوّن الامبراطورية الشرقية مستقلة عن امبراطورية روما الغربية ، كما أصبحت لغة الدين والصلاة في العالم الأرثوذكسي عند ما اعتنقت الامبراطورية المذكورة الديانة المسيحية ...

بهذه الصورة تقاسمت اللغتان اللاتينية واليونانية السيطرة على الحياة الدينية في أوربا المسيحية، فأصبحت الطقوس والصلوات المسيحية تحت احتكار اللاتينية في أوربا الغربية في جميع البلاد التي اعتنقت المذهب الكاثوليكي ، وتحت احتكار اليونانية في أوربا الشرقية ـ في جميع البلاد التي اعتنقت المذهب الأرثوذكسي ـ واستمر الحال على هذا المنوال طوال القرون الوسطى حتى حلول عصر النهضة وظهور البروتستانتية ...

وأما الحياة الأدبية العلمية ، في القرون الوسطى ، فمن المعلوم أنها لم تجد من يزاولها ويهتم بها إلا من بين رجال الدين ؛ فعاشت وترعرعت تحت ظلال الكنائس وفي أروقة الأديرة ، وارتبطت لذلك — هي أيضاً — باللغة اللاتينية . فأصبحت هذه اللغة لغة العلم والأدب في جميع بلاد الغرب علاوة على كونها لغة الدين والصلاة ...

من المعلوم أن اللاتينية تغلغلت في بعض البلاد الغربية بين جميع طبقات الشعب ، فأصبحت لغة العوام ، وأخذت تتطور من جراء ذلك بصورة تدريجية إلى أن ولدت اللغات التي عرفت فيما بعد بالإيطالية ، والفرنسية ، والأسبانية ، والرومانية . مع هذا ، ظلت اللاتينية الأصلية لغة الدين والصلاة ، ولغة العلم والأدب ، حتى في تلك البلاد ، وحتى بعد تكون اللغات المذكورة واستقلالها عن أمها الأصلية

إن الجامعات الأوربية والمعاهد التعليمية التابعة لها ، أخذت تباشر — في القرون الوسطى — في دور سيطرة اللاتينية على الحياة الفكرية والدينية سيطرة تامة ، ولذلك اعتمدت على اللاتينية كلغة تعليم في جميع فروعها

في الواقع كانت الجامعات المذكورة أدخلت في مناهجها مدة من الزمن تعليم اللغات العربية والعبرية واليونانية أيضاً ... العربية لكونها مصدر العلوم في تلك القرون ، والعبرية لكونها لغة الكتاب المقدس القديم ، واليونانية لكونها لغة الأناجيل الأصلية ... غير أن العربية والعبرية خرجتا بعد مدة من ميدان مشاركة اللاتينية في التعليم ؛ وظلت اليونانية اللغة الوحيدة التي تساعد اللاتينية في مهمتها العلمية والتعليمية ؛ وقد رسخت قدماها في هذا الميدان ـ بمرور الزمن، ولاسيما بعد أن بدأ الاهتمام بخزائنها العلمية والأدبية ...

إن معاهد التعليم الثانوي التي تأسست لتهيئة الطلاب للجامعات تأثرت بهذه الحالة العامة ، فاعتبرت اللاتينية أساس كل شيء ، ولم تشرك بها لغة غير اليونانية في بادئ الأمر

إن تاريخ التعليم في فرنسا يقدم تفاصيل وافية عن أحوال تلك المدارس ومناهجها الدراسية وتعليماتها الإدارية . ونفهم من تلك التفاصيل أن المدارس الثانوية في القرن السادس عشر كانت بمثابة مدارس لاتينية بكل معنى الكلمة : لا يدرس في سنتها الأوليين شيء غير اللاتينية ؛ ثم يضاف إليها في السنة الثالثة مبادئ اللغة اليونانية ، وفي السنة الأخيرة بعض المسائل الرياضية . وأما اللغة الفرنسية أو العلوم الأخرى ، فلم تشغل أي حيز كان في مناهج الدراسة . حتى إن التكلم باللغة المذكورة كان يعتبر من الأمور الممنوعة على المعلمين والطلاب في خلال الدرس أو بعد الدرس ، في داخل الصف أو في خارج الصف — وهذا المنع كان مؤيداً بعقوبات عديدة وشديدة ...

« يتبع »

أبو خلدون

الافصاح في فقه اللغة

معجم عربي : خلاصة المخصص وسائر المعاجم العربية . يرتب الألفاظ العربية على حسب معانيها ويسعفك باللفظ حين يحضرك المعنى . أقرته وزارة المعارف ، لايستغنى عنه مترجم ولا أديب ، يقرب من ٨٠٠ صفحة من القطع الكبير . طبع دار الكتب ، ثمنه ٢٥ قرشا يطلب من مجلة الرسالة ومن المكتبات الكبيرة ومن مؤلفيه:

حسين يوسف موسى ، عبد الفتاح الصعيدي